حزب التحرير : دراسة ونقد

بقلـــم

الدكتور همام سعيد

حزب التحرير : دراسة ونقد

بقلـم

الدكتور همام سعيد

إن من المسلمات التي لايماري فيها أحد أن المسلمين فقدوا شخصيتهم الواحدة بفقدهم دولتهم الواحدة ، وأن سقوط الخلافة الإسلامية كان من أعظم المصائب التي دهمت المسلمين منذ قامت الدولة الإسلامية على يد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة ، ومن المسلمات أيضاً أن العمل لإقامة الدولة الإسلامية الواحدة واجب في عنق كل مسلم .

ولقد ظهرت في الساحة الإسلامية جماعات كثيرة بهدف استئناف الحياة الإسلامية .

وعلى الرغم من اتحاد هذه الجماعات في الهدف والفكرة ، إلاّ أنها اختلفت في الأسلوب والطريقة . وكانت جماعة الإخوان المسلمين أكبر هذه الجماعات وأسبقها في حمل هذه الفكرة ، وقد سلكت هذه الجماعة أسلوب إصلاح الفرد ، فالأسرة ، فالمجتمع ، فالدولة ، واعتمدت التربية بجوانبها الثلاثة العقلية والروحية والبدنية ، وتبنت مختلف النشاطات في آن واحد وفق نظرة شمولية للإسلام . وبعد قيام هذه الجماعة باثنين وعشرين عاماً ظهر حزب التحرير الإسلامي في الأردن آخذا على ماسبقه من الجماعات :

١ ـــ أنها تقوم على فكرة عامة غير محددة ، علاوة على أنها تفقد النقاء والصفاء .

٢ ـــ أنها لم تكن تعرف طريقة لتنفيذ فكرتها ، بل كانت تعتمد وسائل مرتجلة وملتوية فضلا عن أنها كان يكتنفها الغموض والإبهام .

٣ ـــ أنها كانت تعتمد على أشخاص لم يكتمل فيهم الوعي الصحيح ، ولم تتمركز لديهم الرغبة الصحيحة ، بل كانوا أشخاصاً عندهم الرغبة والحماس فقط .

٤ ـــ أن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يضطلعون بعبء الحركات لم تكن فيهم رابطة صحيحة سوى مجرد التكتل الذي يأخذ صوراً من الأعمال ، وألفاظاً متعددة من الأسماء[1] .

إخفاق الحركات السابقة :

وقد حكم حزب التحرير على الحركات السابقة بالخمود والانقراض لاعتمادها على الحماس المجرد . يقول النبهاني : (ولهذا كان من الطبيعي أن تندفع هذه الكتل فيما عندها من مخزون الجهد والحماس حتى ينفد ، ثم تخمد حركتها ثم تنقرض ، وتقوم بعدها حركات أخرى من أشخاص آخرين)[٢] .

خطر الجماعات الإسلامية في نظر حزب التحرير :

ويرى حزب التحرير أن هذه الجماعات تحمل في طيات نفعها الظاهر خطراً عظيماً على الإسلام والمسلمين ، حيث أن وجودها مع ماهي عليه من غموض فكرتها وعجز وسائلها يشكل متنفساً للعاطفة الإسلامية المتأججة ، وبدل أن يترك المسلمون كي يصلوا إلى درجة الانفجار في مواجهة الأحداث ، فإن هذه الجماعات تشعر بما تظهره من عمل إسلامي بأن الخير موجود في الأمة ، يقول النبهاني : وإذا نُظر بعين التدقيق إلى نتائج هذه الجمعيات يُرى أنها لم تثمر شيئاً ينفع الأمة ، أو يساعد على النهضة . وكان ضررها خفياً بحيث لايظهر إلا للمدقق ، مع أن وجودها من حيث هو ضرر كبير ــ بغض النظر عن النفع الجزئي ــ وذلك أن الأمة الإسلامية برمتها ، بحكم وجود بعض الأفكار الإسلامية ، وبحكم تطبيقها لبعض الأحكام الشرعية ، وبحكم تمكن المشاعر الإسلامية فيها بتأثير الإسلام ، توجد فيها أحاسيس النهضة وفيها عاطفة الخير ، وفيها الميل الطبيعي للتكتل ، لأن روح الإسلام روح جماعية ، فإذا تركت الأمة الإسلامية وشأنها تحول هذا الإحساس منطقياً إلى فكر وأنتج هذا الفكر عملا ينهض بالأمة[٣] .

خطر الجمعيات الأخلاقية :

ويرى حزب التحرير كذلك أن الجمعيات التي تعمل لنهضة الأمة على أساس الأخلاق جمعيات خطرة أيضاً ، وأنها نفّست عاطفة الأمة بهذه الأحاديث المطولة المكررة المبتذلة ، (وإن قيام هذه الجمعيات مبنيّ على الفهم المغلوط لقوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (سورة القلم : ٤) ، مع أنه وصف لشخص الرسول ــ ﷺ ــ وليس المجتمع ، ولقوله عليه السلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، ولقوله عليه السلام : « إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق » ، وهذان الحديثان يتعلقان بصفات الفرد لا بالجماعة . والأمم لاتكون بالأخلاق ، وإنما تكون بالعقائد التي تعتنقها ، وبالأفكار التي تحملها ، وبالأنظمة التي تطبقها . وهذا مبني أيضاً على الفهم المغلوط لمعنى المجتمع من أنه مكون من أفراد ، مع أن المجتمع هو كل مكون من أجزاء هي الإنسان والأفكار والمشاعر والأنظمة ، وفساده إنما هو آت من فساد المشاعر والأنظمة لا من فساد الإنسان . وإصلاحه إنما يكون بإصلاح أفكاره ومشاعره وأنظمته[٤] .

ثم يصل النبهاني إلى الحكم على جميع الجماعات والجمعيات فيقول : (ولهذا نستطيع القول بعد الدراسة والتفكر والاستقراء أن البلاد الإسلامية جميعها لم ينشأ فيها خلال القرن الفائت أي تكتل صحيح يؤدي إلى نهضة ، وجميع التكتلات أخفقت لقيامها على أساس مغلوط ، مع أن الأمة لاتنهض إلاّ بالتكتل)[٥] .

مبادئ حزب التحرير :

تناول حزب التحرير في كتبه مسائل فكرية اتخذ فيها مواقف محددة . وسنعرض هذه المبادئ كما جاءت في كتب الحزب وسنترك مناقشتها إلى مبحث مستقل في هذا البحث .

أولا : الكون والحياة والإنسان مادة فقط وليست روحاً :

يقرر النبهاني في كتاب مفاهيم حزب التحرير أن الإنسان والكون والحياة مادة مدركة محسوسة ، وأن القول بتركيب الإنسان من المادة والروح قول خطأ . فيقول : (فالنظرة العميقة المستنيرة للكون والحياة والإنسان من حيث معنى الروح بأنها إدراك الصلة بالله من حيث الروح سر الحياة ــ ترى أنها مادة فقط وليست روحاً مركبة من المادة والروح . أما أنها مادة فظاهر غير خفي لأنها مدركة محسوسة وأما أنها ليست روحاً فذلك أن الروح هي إدراك الإنسان صلته بالله تعالى . وهذا الإدراك من الإنسان لصلته بالله ليس هو الكون ولا الإنسان ولا الحياة ، بل هو شيء غيرها)[٦] .

ثم يقول : وعلى هذا فإن ما يقوله بعض الناس من أن الإنسان مركب من مادة وروح ، فإذا غلبت فيه المادة على الروح كان شريراً ، وإذا غلبت فيه الروح على المادة كان خيراً ، هذا القول غير صحيح .

ويرى النبهاني (أن الروح ليست هي سر الحياة ، ولا ناشئة عن سر الحياة ولا علاقة لها بسر الحياة ، بل هي شيء غيرها قطعا ، بدليل أن الحيوان فيه سر الحياة ، ومع ذلك ليس لديه روحانية ، ولا ناحية روحية ، ولا أحد يقول عنه إنه مركب من المادة والروح)[٧] .

وينتهي النبهاني إلى أن الروح هي تعبير عن كون الأشياء مخلوقة لخالق ، فإذا أدرك العقل هذه الصلة فإنه يحصل من جراء ذلك شعور بعظمة الخالق ، وشعور بالخشية منه[٨] ، ويرى أن هذه الصلة موجودة عند المؤمن فيكون صاحب روح ، وليست موجودة عند الكافر ، فهي توجد حيث يوجد الإيمان وتنعدم حيث ينعدم[٩] ، ويرى أنه بذلك بلور معنى الروح ، كما استطاع العلم أن يصل إلى معرفة ماهية العقل معرفة صحيحة ، إذ أنه (نقل الواقع إلى الدماغ بواسطة الإحساس ومعلومات سابقة تفسر هذا الواقع)[١٠] .

ثانياً : العمل الإنساني مادة يقوم به الإنسان قياماً مادياً إلاّ أنه حين يقوم به يدرك صلته بالله من حيث كون هذا العمل حلالا أو حراماً فيقوم به أو يمتنع عنه على هذا الأساس .

وهذا الإدراك من الإنسان لصلته بالله هو الروح . وهو الذي يجبر الإنسان أن يعرف شرع الله ليميز أعماله فيفهم الخير من الشر[١١] . ويمكنه أن يقوم بالعمل أو يحجم عنه حسب هذا الإدراك[١٢] .

ثالثاً : (والأخلاق جزء من الشريعة الإسلامية ، وقسم من أوامر الله ونواهيه ، لابد من تحقيقها في نفس المسلم ليتم عمله بالإسلام ، ويكمل قيامه بأوامر الله ونواهيه . والصفات الخلقية لايتصف بها المسلم لذاتها ولا لما فيها من منفعة ، بل يتصف بها لأن الله أمره بها فقط لا لأي شيء آخر ، فلا يتصف المسلم بالصدق لذات الصدق ولا لما فيه من منفعة بل لأن الشرع أمره به)[١٣] .

رابعاً : (ولا يجوز أن يخلو عصر من العصور من مجتهد ، وإذا اتفق الكل على ترك الاجتهاد أثموا ، وذلك لأن طريق معرفة الأحكام الشرعية إنما هو الاجتهاد ، فلو خلا العصر من مجتهد يمكن الاستناد إليه في معرفة الأحكام أفضى ذلك إلى تعطيل الشريعة واندراس الأحكام ، وذلك لايجوز)[١٤] .

خامساً : يعتمد حزب التحرير الطريقة العقلية للتفكير لا الطريقة العلمية ، يقول النبهاني : لايجوز أن تتخذ الطريقة العلمية أساساً ، وذلك لأن الطريقة العلمية توجد نتيجة ظنية عن وجود الشيء ، وعن صفته ، وأما الطريقة العقلية فإنها تعطي نتيجة قطعية عن وجود الشيء ، وعن وجود صفات معينة له)[١٥] ، ويعمل الحزب على تغيير طريقة التفكير عند العالم بطريقة التفكير الإسلامية . ويرى أن طريقة تفكير العالم الإسلامي سطحية ضحلة ، فلا بد من جعل طريقة التفكير عنده عميقة .

فمثلا بدلا من مقاومة الاستعمار بالمظاهرات والاحتجاجات يعمل لقلع جذور الاستعمار بإيجاد القيادة الفكرية الإسلامية ، وإيجاد الدولة الإسلامية[١٦] . وأما العالم المتقدم فكرياً فإنه منحرف التفكير ، ضال عن الصراط المستقيم لأن طريقته في التفكير هي الطريقة العلمية ، فلا بد من جعل طريقة التفكير العقلية هي أساس الفكر عنده ، وذلك أن الطريقة العلمية تفرض التخلي عن جميع المعلومات السابقة عن الشيء الذي يبحث ، ثم تبدأ بملاحظة المادة وتجربتها ، وعلى ذلك فكل مالا يلمس مادياً لاوجود له في نظر الطريقة العلمية . وإذن لاوجود للمنطق والتاريخ وغيرهما ، وهذا هو الخطأ الفاحش لأن العلوم الطبيعية فرع من فروع المعرفة وفكر من الأفكار ، والذي يتخذ أساساً للتفكير الطريقة العقلية ، وهي أن الفكر أو الإدراك العقلي إنما يأتي عن طريق نقل الحس بالواقع بواسطة الحواس إلى الدماغ ، ووجود معلومات سابقة يفسر بواسطتها الواقع ، فيصدر الدماغ حكمه عليه ، وهذا الحكم هو الفكر أو الإدراك العقلي .

وقد أطلق الحزب على العقيدة مصطلح « العقيدة العقلية » حيث يقول : (إن هذه المجموعة من الأفكار التي تقوم عليها الدولة أي مجموعة المفاهيم والمقاييس والقناعات إمّا أن تكون مبنية على فكر أساسي أو ليست مبنية على فكر أساسي ، فإن كانت مبنية على فكر أساسي فإنها تكون متينة البنيان وطيدة الأركان ، لأنها تستند إلى أساس مابعده أساس ، لأن الفكر الأساسي هو الفكر الذي لايوجد وراءه فكر ألا وهو العقيدة العقلية ، فتكون الدولة حينئذ مبنية على عقيدة عقلية)[١٧] .

التكتل الحزبي في نظر حزب التحرير :

يرى تقي الدين النبهاني أن التكتل الصحيح لابد أن يسير في الطريق الآتي :

١ ــ الاهتداء إلى المبدأ من قبل **شخص فائق الفكر والإحساس** فيتفاعل معه حتى يتبلور فيه ، ويصبح واضحاً لديه . وحينئذ توجد **الخلية الأولى** ، ولا تلبث أن تتكاثر هذه الخلية تكاثراً بطيئاً . فيوجد أشخاص آخرون يكونون خلايا ، ويتصلون ببعضهم اتصالا كلياً بالمبدأ ، فتتكون منهم الحلقة الأولى للكتلة الحزبية « قيادة الحزب » .

٢ ــ هذه الحلقة الاولى قليلة العدد بطيئة الحركة ، ولا ينجذب إليها في أول الأمر إلا من كان فيه الإحساس قوياً ، إلى حد أنه أوجد فيه قابلية الانجذاب .

٣ ــ يكون تفكير هذه الحلقة الأولى « القيادة » عادة عميقاً ، وطريقها في النهضة جذرية ، ولذلك ترتفع هذه الحلقة عن الواقع السيئ ، وتحلق في الأجواء العليا وتبصر الواقع . وتستطيع أن تدرك ما وراء الجدار ، في حين أن أكثر المجتمع الذي تعيش فيه يبصر أمامه فقط .

٤ ــ أن فكر الحلقة الحزبية الأولى يستند إلى قاعدة ثابتة ، وهي أن الفكر لابد أن يتصل بالعمل ، وأن الفكر والعمل لابد أن يكونا من أجل غاية .

٥ ــ على الحلقة الأولى أن توجد حركات مقصودة لتنمية نفسها تنمية سريعة ، ولتنقية جوها تنقية تامة ، وبذلك تتحول من حلقة حزبية إلى كتلة حزبية إلى حزب يفرض نفسه على المجتمع .

٦ ــ يجب أن تكون العقيدة الراسخة والثابتة ، والثقافة الحزبية هي الرابط بين أعضاء الحزب . وطريقة **تقوية هذه العقيدة والثقافة هي الدراسة والفكر** ليتكون العقل تكويناً خاصاً .

٧ ــ تشبه الحلقة الأولى « القيادة » « المحرك » الذي يعطي الحركة فيحرك الأجزاء الأخرى التي هي حلقات الحزب الأخرى . فتكون الحلقة الأولى « محركاً » اجتماعياً **يشكل كلا**

فكرياً في جميع الحزب ، فتنبعث حرارة كل جزء منه ، ومن الكل الفكري الشائع في الحزب[18] .

المراحل التي يسير فيها الحزب :

حدد النبهاني في كتابه التكتل الحزبي مراحل سير الحزب فقال :

« يسير الحزب المبدئي في ثلاث مراحل حتى يبدأ تطبيق مبدئه في مجتمعه .

أما المرحلة الأولى : فهي المرحلة التأسيسية ، وهي اعتبار جميع أفراد الأمة سواء في أنهم خالون من كل ثقافة ، والبدء بتثقيف من يريدون أن يكونوا أعضاء في الحزب ، واعتبار المجتمع كله مدرسة للحزب[19] ، ويختلف الحزب عن المدرسة في ثلاث نقاط :

(أ) المدرسة رتيبة غير قادرة على التشكل ، والحزب متطور وغير رتيب .
(ب) المدرسة تثقف الفرد ليؤثر في الجماعة ، فتكون نتائجها فردية ، والحزب يثقف الجماعة لتؤثر في الفرد .
(جـ) المدرسة تهيئ الجزء الشعوري في الفرد ليؤثر في مشاعر الجماعة ، والحزب يهيئ الكل الشعوري في الجماعة ، ليؤثر في مشاعر الأفراد[20] .

ويؤكد النبهاني هذه المعاني فيقول : (الحزب يقوم على تربية الجماعة وتثقيفها بوصفها جماعة واحدة ، بغض النظر عن أفرادها ، وهو لا ينظر إلى هؤلاء الأفراد الذين فيها باعتبارهم أفرادا معينين ، وإنما ينظر إليهم باعتبارهم أجزاء الجماعة . فهو يثقفهم جماعياً ليصلحوا الجماعة . فلو فرضنا أن جماعة في قطر سكانه مليون نسمة ، وفيه حزب عدد أعضائه مائة شخص ، فإنه يحدث في هذا القطر نهضة تعجز عنها المدرسة مهما بذلت من جهد)[21] .

المرحلة الثانية : مرحلة التفاعل مع الأمة ، وهي التي يصحبها الكفاح ، وتعتبر هذه المرحلة دقيقة ، والنجاح فيها دليل على صحة تكوين الحزب . والإخفاق فيها دليل على أن فيه خللا يجب إصلاحه)[22] .

ويقرر النبهاني أن انتقال الحزب من دور الثقافة إلى دور التفاعل طبيعي ، بحيث إذا أراد أن ينتقل قبل الأوان لا يقدر[23] .

ويؤكد النبهاني أن هذا التفاعل مع الأمة ضروري لنجاح الحزب في مهمته ، لأنه مهما كثر أعضاء الحزب في الأمة ولم يتفاعلوا معها لايستطيعون أن يقوموا بعمل وحدهم[24] .

ويرى النبهاني أن شرح أفكار الحزب للأمة ، وتبيين مافي الأفكار الأخرى من زيف ، وما في الثقافات الأخرى من باطل كفيل بانصراف الأمة عنها إلى ثقافة الحزب وفكره[25] .

المرحلة الثالثة : مرحلة الوصول إلى الحكم عن طريق الأمة ، وينفذ المبدأ دفعة واحدة ، وذلك مايسمى بالطريقة الانقلابية . وهذه الطريقة لا تقبل الاشتراك بالحكم مجزءاً ، بل تأخذ الحكم كله(٢٦) .

وينهي النبهاني كلامه حول هذه المراحل بقوله : فالحزب هو الضمانة الحقيقية لإقامة الدولة الإسلامية ولبقائها ولتطبيق الإسلام ، وإحسان تطبيقه ، واستمرار هذا التطبيق(٢٧) .

ويركز النبهاني على نوعين من القياس : الأول : قياس أفكار المجتمع ومشاعره ، وذلك من أجل معالجة هذه الأفكار والمشاعر بمهاجمة الأفكار المغلوطة ، والنوع الثاني : معرفة الميول التي عند الناس لأفكار الحزب وللحزب نفسه ، أي هل يقبل الناس أفكار الحزب أو ينفرون منها ؟ وهل يحبون الحزب نفسه أو يبغضونه ؟ أو أنهم لايحبونه ولا يبغضونه ، وإنما يقفون منه موقف الإهمال أو اللامبالاة(٢٨) .

خلاصـــة :

ويلخص النبهاني عمل الحزب بقوله : (لابد أن تظل الناحية الفكرية هي الأساس ، وأن يظل اقترانها بالعمل السياسي فقط هو حجر الزاوية في العمل ، ومن هنا كان لزاماً على الحزب أن يظل محيطاً بالأحوال السياسية العالمية ، والأحوال السياسية في العالم الإسلامي ، ولا سيما الأحوال السياسية في مجال عمله ، وكذلك كان لزاماً عليه أن يسعى لأن يجعل الأفكار الإسلامية وحدها هي التي توضع موضع المناقشة وموضع البحث في جميع البلاد الإسلامية)(٢٩) .

السرعة في الوصول إلى النتائج :

ذهب النبهاني في كتاب الخلافة إلى أن الوصول إلى النتائج لايحتاج إلى قرون ، وهو بذلك يشير إلى الجماعات الإسلامية الأخرى ، والإخوان المسلمين على وجه الخصوص ، فيقول : ولذلك لابد أن تثقف الأمة الثقافة السياسية مبتدئة أولا وقبل كل شيء بعقيدتها العقلية ، أي بفكرتها الكلية عن الكون والإنسان والحياة ، باعتبارها فكرة سياسية لافكرة روحية فحسب ، ثم بما ينبثق عنها من الأفكار السياسية ، وما يبنى عليها من الوسائل والغايات . ومتى وجد ذلك فقد بدأت تُربَةُ هذه الأمة تكون خصبة بالرجال ، ومنبتاً طبيعياً لرجل الدولة ، وذلك لايحتاج إلى قرون كما يتوهمون ، حتى ولا إلى عشرات السنين ، وإنما يحتاج فقط إلى البدء في تلقي الأمة لهذه الثقافة السياسية بوعي وشغف ، وحينئذ قد ينتج في بضع سنين وقد ينتج في مدة أكثر من ذلك ، ولكنه على أي حال لابد أن ينتج حتماً ، على يد نفس الجيل الذي يقوم بهذا التثقيف السياسي ، ويقوم على ذلك في نفس الوقت بدور القيادة السياسية المبدعة(٣٠) .

تركيز حزب التحرير على الدستور والأنظمة :

ولما كان حزب التحرير يرى أن المجتمع يتألف من الأفكار والمشاعر ، والنظم والإنسان ، وأن المشكلة كامنة في الأفكار والمشاعر والنظم وليست في الإنسان ، فقد عمل الحزب على إصدار كتب تحديد مفاهيم الحزب ، وإلى جانبها كتب تقدم النظم الإسلامية كما يراها حزب التحرير . كما اعتمد الحزب دستوراً مؤلفاً من مائة واثنتين وثمانين مادة . والجدير بالذكر أن هذا الدستور أدخلت عليه التعديلات قبل أن يصل إلى مرحلة التطبيق ، فقد جاء في مقدمته : (فإن حزب التحرير كان قد أصدر دستوراً له منذ نشأته ، ونشره للناس مطبوعاً في كتبه سنة ١٣٧٤هـ ـــ ١٩٥٥م ، ثم على ضوء المناقشات المنزلة على الوقائع الجارية ، وعلى تقدير أن الدولة الإسلامية قائمة بالفعل تقديراً واقعياً . وتقدير أن الحزب يتسلم الحكم تقديراً عملياً أجرى بعض تعديلات فيه بناء على قوة الدليل الشرعي)[٣١] .

كما أصدر الحزب كتباً تتناول النظام الاجتماعي والنظام الاقتصادي ، ونظام العقوبات ونظام الحكم ، وأصدر كتباً عن الدولة الإسلامية والخلافة ، والشخصية .

ويضاف إلى هذه الكتب الكثير من النشرات والفتاوى والبيانات .

تحليـل ونقـد :

عرضنا في العجالة السابقة أهم أفكار حزب التحرير ويبدو فيها من الإيجابيات :

١ ـــ التحديد والبلورة الفكرية والمنهجية ، فللحزب أفكار محددة في المجتمع والأخلاق والدولة ، وفي المفاهيم والأنظمة ، وله منهجه في العمل بغض النظر عن صواب المنهج أو عن خطئه .

٢ ـــ التزم الحزبيون الدوران مع أفكار الحزب ومنهاجه . دون حيد عنها مع الاعتداد بما هم عليه ، لأن الحزب يرى أن ماهو عليه هو الصواب الذي يحتمل الخطأ . علماً بأن حزب التحرير لم يغير من أفكاره ومفاهيمه ، ولم يعترف بشيء من أخطائه .

٣ ـــ تقديم النظم الإسلامية في مجال الحكم والاقتصاد والأسرة والعقوبات ، وتقديم دستور يرسم شكل الدولة ومبادئها العامة ، وقد حاولوا أن يبرروا ما ذهبوا إليه من نظم وتشريعات .

٤ ـــ إن اعتبار قضية الدولة هي المحور المركزي لعملهم جعلهم يصرفون جهدهم كله نحو هذا الهدف ، مما أكسبهم قدرة على الحجاج والمناقشة .

٥ ـــ لفتوا نظر الجماعات الأخرى إلى ضرورة التركيز على الأمور السياسية والبحث في النظم الإسلامية .

المآخذ على الحزب :

وإنه من واقع الحوار الفكري والنصيحة لفئة من شباب الإسلام فإنني أسجل ملاحظاتي على الحزب فكراً ومنهجاً وأسلوباً ، وهي :

١ ــ إن قول الشيخ النبهاني الذي ذكرناه سابقاً حول نشأة الحزب عن طريق (الاهتداء إلى مبدأ من قبل شخص فائق الفكر والإحساس) يشعر بنظرة الشيخ إلى نفسه وأنه فائق الفكر والإحساس ، ومن هنا فإن آراءه وأفكاره لم تكن لتقبل النقد ، مما جعل أقرب المقربين إليه ينفضون عنه .

٢ ــ لقد أعطى الشيخ النبهاني نفسه صفة الخلية الأولى الفائقة الإحساس والفكر ، ونظر إلى الحزب على أنه كتلة واحدة ، ونظر إلى الأمة على أنها كل فكري شعوري . وهذا الاتجاه الذي يهمل الفرد ، ويتكلم عن الكل وعن الجسم العام ، غريب على الفكر الإسلامي بهذا المستوى ، وهو اتجاه ذهب إليه فلاسفة الفكر القومي ، الذين اعتبروا الأمة جسماً واحداً والحزب رأسها ، والقائد ضميرها . يقول الشيخ : الأمة جسم واحد لايتجزأ ، وهي في تكوينها الكلي كالإنسان(٣٢) .

٣ ــ أخذ الحزب على نفسه أن يتعامل مع الأمة كلها منذ اللحظة الأولى تحت شعار : أصلح المجتمع يصلح الفرد ، وعمد إلى طريقة التثقيف الجماعي ، سيراً على مبدأ تسخين المجتمع كله إلى أن ينتقل انتقالا طبيعياً إلى مرحلة الغليان ، وهذه الفكرة أقل مايقال فيها : إنها فكرة خيالية فكيف نثقف الكل دون المرور بالجزء ؟ وكون الحزب يخاطب الناس إنما يخاطب آحادهم ، فهو عندما يوزع منشوراً أو كتاباً فإنه يدفعه إلى أفراد المجتمع فرداً فرداً . وكذلك عندما يغير المفاهيم والمشاعر إنما يخاطب الأفراد ، وكون المفهوم الخطأ شائعاً عند عدد من الناس ، فلا يعني تصحيحه التوجه بلغة سحرية جماعية لا تمرّ عبر القنوات الفردية . ويبدو لي أن الخيال بلغ مداه عندما تصور الحزب طريقة التثقيف الجماعي كي يضرب طريقة التربية الفردية التي يتصف بها غيره من الجماعات . ثم إن القول بالتثقيف الجماعي قول فيه غموض يجعل أمر هذا التثقيف بعيداً عن الضبط والملاحظة والمراقبة . نعم لابد أن تتوجه الجماعة إلى الناس بالخطاب العام ، ولكن هذا لايغني عن الخطاب الخاص الموسوم بالرؤية والصبر والتعليم . والعجب أن إخواننا في هذا الحزب قد حكموا على هذا المنهج بالنجاح الحتمي والقطعي والطبيعي .

وكان من السهل على الحزبيين أن يصدقوا دعوى تسخين المجتمع في سني الحزب الأولى . ولو بحثنا اليوم ، وبعد مضي خمس وثلاثين سنة ، أين وصل تسخين المجتمع ؟ هل وصل إلى مرحلة التبخر ؟ أم كانت النتيجة عدم تفاعل المجتمع مع هذا المصدر

الحراري ؟ ولقد كان بودنا أن يصل الحزب إلى النتائج والتوقعات ولكن ــ فيما نرى ويرى الناس معنا ــ أصيب الحزب بخيبة أمل ولم يتفاعل مع الناس ، ولم يتفاعل الناس معه . وإنه لمن المكابرة أن يقال : إن الناس لايرون صور النجاح الباهر التي حققها الحزب . وقد اعتبر النبهاني عدم تفاعل الحزب مع الناس دليلا على فشله عندما قال : (وتعتبر هذه المرحلة دقيقة والنجاح فيها دليل على صحة تكوين الحزب ، والإخفاق فيها دليل على أن فيه خللا يجب إصلاحه)(٣٣) . إن الحزب اليوم معزول عن الناس بل وصلت العلاقة بينه وبين الأمة إلى درجة القطيعة ، لقد كان الحزب خيالياً عندما ظن أن بضع سنوات كافية لأن تنفض الأمة عنها غبار الواقع وأشكاله وأفكاره ، ثم تختار منهج الحزب ، وتقوم الدولة الإسلامية ، كما قال النبهاني : « وهذا لايحتاج إلى قرون كما يتوهمون حتى ولا إلى عشرات السنين ، وإنما يحتاج فقط إلى البدء في تلقي الأمة لهذه الثقافة السياسية بوعي وشغف ، وحينئذ قد ينتج في بضع سنين ، وقد ينتج في مدة أكثر من ذلك ، ولكنه على أي حال لابد أن ينتج حتماً وعلى يد نفس الجيل الذي يقوم بهذا التثقيف السياسي)(٣٤) . وكان النبهاني يرى أن العلاقة طبيعية حتمية ، وأن الانتقال من مرحلة إلى مرحلة ــ تماماً ــ كانتقال المادة من حال إلى حال ، وهذه مقولة وردت على لسان الشيوعية حيث اعتبرت التحول من حال إلى حال تحولا خاضعاً لقوانين المادة وخصائصها .

إن قياس درجة استجابة الأمة لأفكار الحزب ومفاهيمه موضوع يخضع للتحكم والادعاء ، في حين أن قياس استجابة الأفراد أمر ميسور عن طريق ملاحظة السلوك والمواقف الفردية .

٤ ــ اعتمد الحزب عملية التثقيف بالأفكار والأنظمة لإيجاد المشاعر كطريق للوصول إلى الغاية . وحشد أكبر الجهود لهذا التثقيف العقلي ، مع التركيز على أن حصول التثقيف العقلي والفكري لدى الأمة يحملها على تغيير الواقع . ولم يركز الحزب على الجانب التربوي الروحي ، ولم يغذّ الأمة بغذاء التقوى والصبر والصلاة والصوم وسائر الشعائر ، ظناً منه أن القناعات الفكرية وحدها كافية لإحداث التغيير الاجتماعي ، بل زاد الطين بلة عندما زعم أن هذه طريقة النبي ﷺ ، متناسين ذلك الشحن التربوي والعبادي الهائل ، الذي كان ضرورياً لصياغة شخصية النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ، فقد خاطبه الله بقوله : ﴿ ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرءآن ترتيلا ، إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا ﴾(٣٥) .

وقال تعالى : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾(٣٦) . وهو الذي كان يقف في صلاته حتى تنفطر قدماه .

وهذا الغذاء يمد الأفكار بالحيوية والثبات ويملأ النفس بأسباب القوة .

وأما التثقيف العقلي فهو شعار لاحرارة فيه ولا حركة . والسؤال الذي يُطرح الآن : ما حصيلة هذه السنوات الثلاثين في ميدان المفاهيم والمشاعر والأنظمة . وهل القناعة الفكرية كافية لايجاد الخلية القادرة على الاستمرار في الدعوة لاقامة الدولة الإسلامية ؟ وأين الذين ثقفهم الحزب ثقافة مركزة ولقنهم المفاهيم وحملهم المشاعر ؟ وهل نسوا مافهموه وتعلموه ؟ أم أن المفاهيم وحدها لاتكفي ، وكم من مستشرق يفهم الكثير الكثير ولكنه لايستخدم فهمه وعلمه إلا في المكر والكيد . لقد ثقف الحزب مجموعات من الشباب بثقافته ودرسوا كتبه وحفظوها ثم تفرقوا عن الحزب وألقوا عن كاهلهم العمل لتحقيق أهدافه .

٥ ــ وما ذهب إليه الحزب من أن الإنسان مادة فقط قول في غاية الخطورة ، وقد أنتج هذا القول إهمال البعد الروحي ، وأخرجه من مكونات الشخصية ، إذ أن مكونات الشخصية عندهم العقلية والنفسية . والعقلية هي وصول مدركات الحس إلى الدماغ مع المعلومات السابقة ، وأما النفسية فهي الغرائز . فتكون الشخصية المسلمة قائمة على العقيدة العقلية ، والنفسية الموجهة للغرائز بالطريقة الإسلامية . فلم يعد للروح من شأن داخلي في الإنسان ، وإنما هي إدراك عقلي للصلة بالله .

٦ ــ لم يركز الحزب على الجانب السلوكي . ونظراً لاعتباره الأخلاق حاجة فردية مفسراً قول الله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ بأنه كلام عن الناحية الفردية ، فقد كادت كتب الحزب تخلو من كل توجيه يدعو إلى الصدق والأمانة والتقوى والورع ففاته بذلك خير كثير . وسقط كثير من أفراده تحت وطأة الترهيب والترغيب .

٧ ــ زعم الحزب في إحدى نشراته ــ رداً على سؤال عن تأخر قيام الدولة بعد مضي ثلاثة عشر عاماً من الدعوة ــ بأنه في مرحلة طلب النصرة ، وقد طلب هذه النصرة من عدد من الحكام والزعماء والتنظيمات . وهذا تصور ساذج لايدل على الفكر المستنير ، ولا سيّما وسط هذا العالم الذي تتقاسمه الدول الكبرى على شكل مناطق نفوذ . والحزب بهذا التفكير يتصور نفسه في الجزيرة العربية أيام البعثة النبوية عندما كانت القبائل العربية تتمتع باستقلالها الكامل في إجارة من تشاء وحرب من تشاء .

٨ ــ مفهوم الحزب للفكر السياسي قاصر على شؤون الحكم ، فاتجه في تثقيفه السياسي على بيان وجهة نظرة السياسة في أحداث المنطقة وعلاقات الدول بعضها ببعض ، علماً بأن النظم التربوية والاجتماعية تدخل دخولا مباشراً في دائرة الفكر السياسي ، ولم يلتفت الحزب إلى السياسة التربوية التعليمية تاركاً هذه الشؤون الخطيرة حتى لايخرج عن مبدئه في البعد عن المدرسة والتربية .

٩ ــ حاول الحزب أن يفسر الأحداث السياسية من خلال الصراع البريطاني الأمريكي ، حيث قسم دول المنطقة وحكامها إلى بريطانيين وأمريكان . والتزم هذه المقولة منذ سنة ١٩٥٠ حتى الآن . ولعل هذه المقولة كانت معقولة في الخمسينيات ، عندما كانت بريطانيا الدولة العظمى التي لاتغيب الشمس عن مستعمراتها ، وأما الآن فهي دولة من رتبة خامسة أو سادسة ، ولم يعد لها ذلك النفوذ السياسي العالمي المقابل للنفوذ الأمريكي .

وطريقة الثنائية الدولية في الصراع أمر لامفر منه عند حزب التحرير ، وقد حملتهم هذه الثنائية على تفسير أحداث القرن الثامن عشر والتاسع عشر من خلال الصراع بين بريطانيا وفرنسا . أما الحديث عن روسيا فلا يرد مطلقاً في نشرات الحزب السياسية .

١٠ ــ إن القول بتقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب ، وإنه لايوجد في العالم الآن دار إسلام قول فيه بعد عن الحقيقة ، فإن هذه التقسيمات كانت في ظل الدولة الإسلامية ذات الجيوش الموجهة لفتح الاصقاع ونشر العقيدة . وأما اليوم فإن هذا التقسيم يفقد مبرره من جهة ، ومن جهة أخرى فإن نفي صفة الإسلام عن المجتمع تجن على جوانب من الخير مازالت قائمة . وهو في الوقت ذاته باعث على الإحباط ، ويفسح المجال لأعداء الاسلام لاستغلال طاقات المجتمع الذي تخلينا عنه عندما نصفه بمثل هذه الصفة الخطيرة . وكون المجتمع يتخلى عن النظم الإسلامية وعن منهاج الدعوة إلى الله لا يحملنا على الإجهاز عليه بالأحكام التي تحتاج إلى أدلة قطعية ولا تكفي فيها الشبهة أو التهمة .

١١ ــ لست مع الحزب في خطر الجماعات والجمعيات على الأمة وأنها تنفس الجهد والطاقة وتؤخر المسيرة ، بل هذه الجماعات والجمعيات والعلماء والكليات الشرعية والخطباء كل هذه القوى تسهم في عملية التغيير . وكل يلقي بعض جهده في خضم هذا العمل الإسلامي وليس الرصيد ملكاً لأحد بعينه ولا ناشئاً عن أحد بعينه ، بل هو جهد مبارك أسهمت فيه الجماعات وأسهم فيه كثير من الأفراد .

الفتــاوى الشــاذة :

لقد تجاوز حزب التحرير المفاهيم والمشاعر والنظم العامة إلى الفتاوى الجزئية فأصاب في بعضها وأخطأ في بعضها الآخر وكانت الأخطاء فادحة وجوهرية ، ففي أجوبته عن أسئلة بتاريخ ٢٩ / ٥ / ١٩٧٠ جاءت الإجابة عن سؤال : « ماحكم القبلة بشهوة مع الدليل » مانصه :

(ولما كان تقبيل الرجل للأجنبية مظنة أن يكون أنه يريدها ، لذلك غلب على الناس اعتبار تقبيل الأجنبية حراماً ، وهذا ماعليه الناس إلاّ أن الحزب يتقيد بالدليل الشرعي ، ويعتبر الحكم الشرعي بالدليل لا بالعقل ، لذلك فإن كون الشيء مظنة فقط لايكون دليلا ، فخروج المرأة الجميلة إلى الشارع مظنة أن يفتتن الناس بجمالها لا يجعل خروجها حراماً وكون الرجل يقبل

مظنة أنه يريدها لا يجعله حراماً ، أي لا يكون دليلا على حرمة تقبيل الرجل للمرأة ، فالمسألة بيننا وبين الناس هي مسألة اعتبار الدليل ، فنحن لا نرضى بأي حكم إلا ما جاء به الوحي ، والمظنة ليست من الأدلة والناس يعتبرون المظنة دليلا ، ونحن لا نريد أن ننزل عند اعتبار الناس طمعاً في تأييدهم ، أو رغبة في كف ألسنتهم بل نريد أن نحمل الناس على السير معنا في التقيد بالدليل الشرعي ، وأن لا دليل شرعي إلا ماجاء به الوحي . لذلك نصارح الناس بأن التقبيل من حيث هو تقبيل ليس بحرام لأنه مباح لدخوله تحت عموم الأدلة المحببة لأفعال الإنسان العادية ، كالمشي ، والغمز ، والمص ، والتقبيل ، وزم الشفتين ، إلى غير ذلك من الأفعال التي تدخل تحت عموم الأدلة إلا أن التقبيل إذا كان تقبيلا معيباً أي لامرأة أو غلام فإنه حرام ، سواء أكان بشهوة أم بغير شهوة ، لأنه ينطبق عليه شرطا التحريم ، وإن لا يكن كذلك فإنه من المباحات . إلاّ أن كونه من المباحات لا يعني أن نفعله أو نأمر بفعله ، بل يعني أننا نبيّن الحكم الشرعي فيه ، ثم إنه ليس كل مباح يفعله المسلم ، فإن المسلم ــ ولا سيما الورع ــ يجتنب الشبهات ، ومن الشبهات اجتناب ما يظنه الناس منكراً ، فالسير في الأمكنة المشبوهة بالفجور ، كالشوارع التي فيها الساقطات ، واتخاذ الشاب الجميل صاحباً ملازماً ، والسير مع امرأة في الليل في مكان خال من الناس ، ولو كانت محرمه أو زوجته ، والجلوس في خمارة ليس فيها إلا الخمر ، كل ذلك وما أشبهه وإن كان مباحاً ، ولكن المسلم لا يفعله ولا سيّما المسلم الورع ، فالشبهات قد طلب الشارع تجنبها ومنها تقبيل الرجل لأجنبية عنه ، فإنه محل شبهة عند الناس أنه يريدها ، أو يجعل نفسه مظنة أنه يريدها ، لذلك يجتنبها من باب « فمن اتقى الشبهات » ولكن ذلك لا يعني أنه حرام) .

وجاء هذا المعنى نفسه في نشرة أجوبة وأسئلة بتاريخ ٢٦ / ٤ / ١٩٧٠م ، وأضاف إلى ذلك جواز مصافحة المرأة الأجنبية فقال :

(فلا يقال ماهو دليل إباحة تقبيل المرأة ، وما هو دليل إباحة مصافحة المرأة ؟ ولا ماهو دليل التكلم مع المرأة ؟ وما هو دليل إباحة سماع صوت المرأة وغير ذلك مما يدخل تحت عموميات الأدلة ؟ بل الذي يقال ما هو دليل تحريم تقبيل المرأة للرجل ؟ فيقال دخول هذا التقبيل تحت دليل تحريم الزنا يجعله حراماً ، فإذا لم يدخل يظل مباحاً حتى يثبت تحريمه بدليل ما ، أو يقال ماهو دليل تحريم مصافحة المرأة ؟ فيقال حديث عائشة عن الرسول ﷺ وما مست يد رسول الله يد امرأة ، فيقال بأن هذا خبر لعائشة عن مدى علمها فلا يصح دليلا ، ولو سلم أن الرسول ﷺ لم يمس يد امرأة ، فإن ذلك ليس دليلا على التحريم لأن عدم فعل الرسول ﷺ لفعل لايدل على تحريم ذلك الفعل إلا أن يمتنع عنه امتناعاً ، وفوق ذلك فإن حديث أم عطية في السابعة « فقبضت منا امرأة يدها » دليل على أن بيعة أولئك النسوة للرسول ﷺ كانت بالمصافحة ، فيكون ذلك دليلا على إباحة المصافحة فوق كونها تدخل تحت عمومات التحية) .

وماذهب إليه حزب التحرير في هذه الفتيا الخطيرة — التي نرجو أن يتراجعوا عنها — بفتح باب الذريعة إلى الزنا ، وإنه لمن ضرب الخيال أن يقال : إنه يمكن أن تكون القبلة بريئة ، وهذه دعوى بعض المتحررين من الشرع والقائلين : نحن نعرف أنفسنا ، ونعرف طهارة قلوبنا ، فيستحلون الحرمات بناء على هذه الدعوى الفاسدة .

وقد أباح حزب التحرير النظر إلى الصور العارية بناء على قاعدة ارتباط الحكم بالدليل . ولا يكفي عندهم ماتثيره الصور العارية من الفساد والتحريض على الزنا ، وهم بذلك يفسحون المجال لتكوين مشاعر تناقض مشاعر الإسلام ، فكيف يتصور الشاب يقف أمام أفلام معينة تكشف عن السوءات ثم تكون مشاعر هذا الشاب مشاعر إسلامية ؟ بل كيف يمكنه أن يأخذ المفاهيم الإسلامية . وسط هذا الجو المحموم ؟ ونرجو أن يُعيد حزب التحرير رأيه في هذه المسألة حتى لا تكون ذريعة لذوي النفوس المريضة فيكون إثمهم على عاتق هذه الفتيا وهؤلاء المفتين .

وقد ذهب الشيخ النبهاني إلى تحريم الشركات المساهمة وتحريم التعامل معها بكل صور التعامل والعلة في ذلك عنده : كون هذه الشركات تنشأ بإدارة منفردة ، وليس فيها إيجاب وقبول ، ويجهل الشريك شريكه . وهذا المذهب من الحزب لا يوافق عليه جمهور العلماء ، فالعقد إنما يتم بإيجاب وقبول ، وكون المساهم يوقع على عقد التأسيس أو عقد الأسهم فهذا يعبر عن رضاه وقبوله . وأما جهالة الشركاء فهي جهالة لا تفضي إلى النزاع والضرر ، ثم إن المصلحة اليوم لا تتحقق في الميادين الاقتصادية إلا عن طريق هذا النوع من الشركة الذي لا يوجد نص قاطع بتحريمه ، وإلا فمنعها يؤدي إلى تنازل المسلمين عن الفعاليات الاقتصادية وتسليمها إلى خصومهم . ونحن على كل حال مضطرون لأن نتعامل مع هذه الشركات ، وقول الحزب بجواز التعامل مع الشركات المساهمة الأجنبية باعتبارها كافرة وهي غير مخاطبة بالفروع ، وفي الوقت نفسه يحرم التعامل مع الشركات المساهمة التي يشكلها المسلمون ... وهذا القول في غاية الغرابة .

الخلاصــــة :

إن مضي هذه السنين دون أن يصل الحزب إلى أهدافه يعني وجود خلل في فكره وطريقته ، ولقد آن الأوان لأن يراجع هذا الحزب مبادئه وآراءه وفتاواه ، وأن يركز على التربية والاهتمام بالفرد المسلم ، لأن الفرد المسلم هو عماد التغيير وأساسه وحريّ بالحزب ألا يعلق الآمال الكبار على منشور سياسي في سبيل تغيير المجتمع وحري به أن يراجع موقفه من الروح وألاّ يخرج على إجماع المسلمين في هذه القضية وألا يكتفى بالبعدين العقلي والنفسي ، فالروح شيء آخر غير الغرائز ، وغير العقل . وهي أداة الاستقبال والإرسال لمعاني التقوى والخشوع والخشية .

ونرجو أن تحمل هذه الآراء على الرغبة في الحوار واللقاء ، لا على أنها صدام بين مسلم وإحدى الجماعات ، فلقد آن الأوان لأن نلتقي على مايجمع ولا يفرق .

المراجـع

١ ــ تقي الدين النبهاني : **التكتل الحزبي** ، ط٢ ، القدس ، ١٩٥٣م .

٢ ــ تقي الدين النبهاني : **نقطة الانطلاق لحزب التحرير** ، ط٢ ، القدس ١٩٥٤م .

٣ ــ تقي الدين النبهاني : **الخلافـة** .

٤ ــ تقي الدين النبهاني : **النظام الاجتماعي في الإسلام** ، ط٢ ، القدس ، ١٩٥٣م .

٥ ــ تقي الدين النبهاني : **سرعة البديهة** .

٦ ــ تقي الدين النبهاني : **مفاهيم حزب التحرير** ، ط٢ ، القدس ، ١٩٥٣م .

٧ ــ حزب التحرير ، **مقدمة الدستور والأسباب الموجبة له** ، ١٩٦٣م .

٨ ــ عبد القديم زلوم ، **كيف هدمت الخلافة** ، ١٩٦٢م .

٩ ــ حزب التحرير ، **مجموعة نشرات** .

١٠ ــ مفاهيم حزب التحرير ، ط٢ ، القدس .

* * *

الهوامـش

(١) تقي الدين النبهاني ، التكتل الحزبي ، ط ٢ ، القدس ، ١٩٥٣ ، ص ٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦ .
(٣) التكتل الحزبي ، مرجع سابق ، ص ١٨ .
(٤) التكتل الحزبي ، ص ١٩ / ٢٠ .
(٥) التكتل الحزبي ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .
(٦) تقي الدين النبهاني ، مفاهيم حزب التحرير ، ص ١٢ .
(٧) مفاهيم حزب التحرير ، ص ١٣ .
(٨) مفاهيم حزب التحرير ، ص ١٤ .
(٩) مفاهيم حزب التحرير ، ص ١٤ .
(١٠) مفاهيم حزب التحرير ، ص ١٦ .
(١١) مفاهيم حزب التحرير ، ص ٢٨ .
(١٢) مفاهيم حزب التحرير ، ص ٢٨ .
(١٣) مفاهيم حزب التحرير ، ص ٣٢ .
(١٤) مفاهيم حزب التحرير ، ص ٣٩ .
(١٥) تقي الدين النبهاني ، نقطة الانطلاق لحزب التحرير ، ط ٢ ، القدس ١٩٥٤ ، ص ١٨ .
(١٦) نقطة الانطلاق ، مرجع سابق ، ص ٢٠ — ٢١ بتصرف .
(١٧) مقدمة الدستور والأسباب الموجبة له ، ص ٧ — ٨ .
(١٨) التكتل الحزبي ، مرجع سابق ، ص ٣٠ — ٣٦ بتصرف .
(١٩) المرجع السابق ، ص ٣٧ .
(٢٠) التكتل الحزبي ، ص ٤٠ .
(٢١) التكتل الحزبي ، ص ٣٩ .
(٢٢) التكتل الحزبي ، ص ٤٢ .
(٢٣) التكتل الحزبي ، ص ٤٣ .
(٢٤) التكتل الحزبي ، ص ٤٤ .
(٢٥) التكتل الحزبي ، ص
(٢٦) التكتل الحزبي ، ص ٥٣ .
(٢٧) التكتل الحزبي ، ص ٥٤ .
(٢٨) نقطة الانطلاق ، ص ١٤ — ١٥ .
(٢٩) نقطة الانطلاق ، ص ١٢ .
(٣٠) تقي الدين النبهاني ، الخلافة ، ص ١٥٨ .
(٣١) مقدمة الدستور والأسباب الموجبة له ط ١٩٦٣ م ، ص ٣ .
(٣٢) التكتل الحزبي ، ص ٢٤ .
(٣٣) التكتل الحزبي ، ص ٤٢ .
(٣٤) الخلافة ، ص ١٥٨ .
(٣٥) الآيات ١ — ٥ من سورة المزمل .
(٣٦) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

مناقشـــة

الأستاذ يوسف العظم

لبحــث

(حزب التحرير : دراسة ونقد)

للدكتور همام سعيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ليوم الدين .. وبعـد :

فأعتذر لحزب التحرير ، إذ يعرض فكره أخي الدكتور (همام) وأناقشه ، وكان بودي أن يعرض تحريري فكر حزب التحرير وسيرته ، غير أن المكتب لم يستجب له أحد من هؤلاء الذين كلفهم ، وقد قمت بالاتصال بالمسؤولين وقادتهم في الأردن ، ورجوتهم أن يقدموا لي كل إيجابياتهم كما يرونها . وليس من الموضوعية أن أقول إنني محايد ، فلي موقف من حزب التحرير ، وهو موقف المعارض ، ولقد سعيت وبذلت جهدي مع أخي الدكتور همام أن نكون منصفين . وهو الأمر الذي يفرضه علينا أدب الإسلام .

لقد عرض الباحث الكريم الموضوع فكراً وحزباً بموضوعية وإنصاف ، أبرز فيه إيجابيات الحزب ، ولكنه كما قلت لم يكن محايداً ولست كذلك . لأننا نأخذ على الحزب مآخذ شتّى ولكنا نحاول أن نكون منصفين فيما نقدم من دراسة أو تعليق . ولا يملك أحد أن يقدم فكر الحزب ونشأته بمعزل عن فكر الإخوان المسلمين ، وفكر « سيد قطب » والجماعة في الأردن بخاصة ، ولأني وُلدت قبل أخي همّام بثلاثة عشر عاماً فاني أرى أن عندي من التجربة مع الحزب مالم يحظ به على أرض الواقع إلا في الفترة المتأخرة ، ذلك لأن الحزب كان في صراع معنا وفي نقاش ، وهو في أوج قوته وتحركه في الخمسينيات ، وأمضينا مع دعاة الحزب قادة وشباباً أكثر من ست سنوات في نقاش مستمر ، وبعد ذلك استمر النقاش ولكنه كان خافتاً .

لقد التقيت بالشيخ « تقي الدين النبهاني » وعرض على الانتساب للحزب ، ولا أجد مجالا لذكر الحديث الذي جرى – بيني وبينه . ولقد كان الباحث لطيفاً حين تحدث عن رأي الحزب في الأخلاق ، ومس ذلك مساً رقيقاً ، فاسمحوا لي أن أقرأ عليكم رأي الحزب في ذلك .

يرى التحريريون أن علاقة الإنسان بنفسه تشمل الأخلاق ، والمطعومات ، والملبوسات وعلاقته بغيره من بني الإنسان تشمل المعاملات والعقوبات ، كما يرون والقول الآن للشيخ تقي ـــ ان الأخلاق لا تؤثر على قيام المجتمع بحال ، لأن المجتمع يقوم على أنظمة الحياة ، وتؤثر فيه المشاعر والأفكار . وأما الخلق فلا يؤثر في قيام المجتمع ، ولا في رقيه أو انحطاطه بل المؤثر هو العرف العام الناجم عن المفاهيم عن الحياة ، والمسير للمجتمع ليس الخلق وإنما هي الأنظمة التي تطبق فيه ، والأفكار والمشاعر التي يحملها الناس . والخلق ذاته ناجم عن الأفكار ونتيجة لتطبيق النظام . وعلى ذلك فلا يجوز أن تُحمل الدعوة إلى الأخلاق في المجتمع أكثر مما تحتمل .

ثم ذكر الباحث الكريم ، أن إمام الحزب هو الشيخ « تقي الدين النبهاني » وهو الذي وصف نفسه في كتابه ، بأنه فائق الفكر والإحساس ، وكان رحمه الله من هذا المنطلق ، الشخصية الطاغية على الحزب ، يفصل من يشاء ويأمر بما يشاء ، ولذلك التزم فكرة الشورى المعلمة ولم يبق حتى الآن في حزب التحرير واحد من مؤسسيه . فهم إما توفوا إلى رحمة الله ، وهم الآن مع شيخهم الذي توفى إلى رحمة الله عام ١٩٧٧م في بيروت ، وإما أنهم تركوا الحزب بسبب فصلهم مه ، أو بسبب اختلافهم مع الشيخ .

وقد ألّف الشيخ كتباً عديدة ، أحب أن أعرض أسماءها بسرعة وهذه الكتب هي وحدها مصادر الفكر لحزب التحرير ، ولم يؤلف تحريري واحد كتاباً واحداً يعتمد في الحزب أو يعتمد مصدراً من مصادر فكره . أما كتب الشيخ تقي الدين النبهاني ، فهي : النظام الاقتصادي ، كما قال أخي ، في الإسلام ، النظام الاجتماعي ، نظام الحكم في الإسلام ، نظام الإسلام ، الدولة الإسلامية ، مقدمة الدستور ، الخلافة ، سرعة البديهة ، الذكاء ، التفكير ، مفاهيم سياسية ، مفاهيم حزب التحرير ، نظرات سياسية لإنقاذ فلسطين ، نداء حار ، التكتل الحزبي ، القدس .

ونلاحظ أن الأخ الكريم ، عدد إيجابيات الحزب ، وأريد أن أركز على إيجابيات له أيضاً ، لعل الأخ لم يتنبه لها ، أو أغفلها عن غير قصد ، وهي : أنه موحد الفكر سواء كان هذا الفكر خطأ أم صواباً ، فأعضاؤه يلتقون على رأي واحد ، لايتركونه قط ويناقشون لإثباته ، ويناضلون دونه وقد يحاولون أن يشوشوا على أي محاضرة أو لقاء إذا كان يعرض فكراً غير فكرهم كي يستقر فكرهم في الأذهان .

ومن الأمور التي لابد أن أشير إليها ، أن الباحث الكريم لم يعرض إلا لمصدر واحد من مصادر الرجوع لفكر التحرير . وهو الكتب أو بعضها ، وقد يكون محقاً علمياً إذ يستند علمياً إلى مادة مكتوبة ، أما أنا فاسمحوا لي أن أشير وقد عانينا معهم في الحوار ست سنوات طويلة ، إلى أن لهم ثلاثة مصادر ، المصدر الأول كتب الشيخ تقي دون غيره ، والمصدر الثاني النشرات التي كانت تصدر بين الحين والآخر . والمصدر الثالث المقولات التي تطرح في ندوات أو في

حلقات . وأنا أطرح على مسمعكم مقولة سمعتها بأذني ولم تنقل إلي . وكان ذلك عام ١٩٥٤م حين خرجنا من المسجد الحسيني والتقينا في حجرة كان شبابهم يلتقون بها ، فوقف شاب كان يعمل ضابطاً في الجيش الأردني ، وطرده (كلوب) من الجيش لأنه كان يدعو الشباب لفكر حزب التحرير ، ونقول هذا للإنصاف ، فبدأ يتفرغ للعمل الحزبي ، فالتقينا به وإذ به يقول للجميع وأنا من بين الجالسين وكنت حديث التخرج في الجامعة : أريد أن أحدثكم عن عدو الإسلام رقم واحد ، وانصرف ذهني إلى (كلوب) لأنه طرده من الجيش ، وقلت لعل الرجل يتكلم عن الاستعمار البريطاني ، ثم انصرف ذهني تاريخياً إلى أبي جهل ، ثم انصرف ذهني إلى احتلال « بن جوريون » في فلسطين ، وإذ به يقول : عدو الإسلام رقم واحد ، وأشهد الله على ذلك هو « الشيخ علي الطنطاوي » وعجبت للأمر ووقفت أقول : أرجوك أن تعطي أولويات وأن تؤجل « الشيخ علي » ، قلت ذلك ساخراً ، فما كان منه إلا أن أصرّ على الاستمرار في الحديث ، فقمت بطريقة ما ، وانفض السامر ، وانفضت الجلسة .. ولكن لماذا اعتبر المتحدث الشيخ الطنطاوي عدوا للإسلام ؟ لأن الشيخ علي الطنطاوي كتب مقالا في مجلة (المسلمون) يومئذ ، التي كان يصدرها الأستاذ سعيد رمضان ، يقول : ظهر في بلاد الشام حزب ، لا يدعو إلى شيء إلا أن تنزل الدولة الإسلامية من السماء كأنها المائدة وتفتح الطبق فتجد طبخة جاهزة لتأكل منها ، كتب بأسلوبه الفكه الساخر الذي تعرفونه ، هذا الموضوع ، فأصبح بهذه الكتابة عدو الإسلام رقم واحد . ولما ناقشناهم في هذا الموضوع بعد شهور ، أنكروا القول . وأطلقوا مقولات كثيرة لست في معرض الحديث عنها ، ومنها :

أن الإخوان المسلمين فاشلون ، إذ لم يقيموا دولة إسلامية خلال ثلاثة عشر عاماً . فالرسول ﷺ أقامها في هذه المدة — ﷺ — ولما مضى على حزبهم حتى الآن خمس وثلاثون سنة ولم يقيموا دولة ، وواجهناهم بما قالوا ، أنكروا وقالوا : لم نقل ذلك ، مع أن هذا القول ورد في ثنايا هذا الكتاب الذي أشار إليه الأخ الكريم في بحثه ، وفيه أن الجيل الذي يدعو لفكر حزب التحرير هو الذي يجب أن يقيم الدولة ، فإن لم يقمها ، فالتحرير أو الحزب أو الحركة فاشلة .

وفي الحزب أمور عجيبة ، منها دستوره وقد عرضه الأخ الكريم لكنه لم يفصّل فيه لضيق المقام ، وأعجب مافي هذا الدستور أنهم يقولون : إن أهل الحل والعقد حول الخليفة ، يجوز أن يكونوا مسلمين وغير مسلمين ، أي أنهم يجيزون لليهودي والنصراني والمجوسي وغير أولئك أن يكونوا أهل الحل والعقد ، وما سمعت بذلك قط في كتاب من كتب الأولين ولا الآخرين ، وما رأيت حكماً شرعياً يجيز ذلك . ولكنهم — في ظني — خلطوا جواز أن يقول الذمي رأيه للإمام أو للحاكم أو للوالي ، فمن حقه ذلك ، وبين أن يكون عضواً منتظماً في أهل الحل والعقد ، يفهم الشريعة ويحلل أحكامها ويقول مايقوله المسلمون المطلعون من العلماء .

النقطة الأخرى : لقد كان للتحريريين صحيفتان « الراية » في عمان والأخرى استأجروها في لبنان ، والواضح من أسلوب الشيخ ، وكنت أتمنى أن يعرض كما هو ، لأن ماعرضه أخي من أسلوب الشيخ قد حسن فيه ، إذ أن الفواصل والنقاط والترقيم كل هذا ليس من عند الباحث لأن الشيخ « تقي » عليه رحمة الله كان أسلوبه مزيجاً من جفاف الأسلوب ، وانعدام الترقيم ، ونقاش المتكلمين ، وقواعد الأصول ، وأحكام الفقه ، واجتهاد الشيخ واستنتاجاته ، وأرجو أن تتصوّروا أن مثل هذا الكلام الذي سمعتموه يقال في مسجد ، على المسلمين لتحسوا كما أحسست أنا أن واحداً يقرأ لنا من كتاب في الفلسفة اليونانية ، ولكن بألفاظ عربية وتعبيرات إسلامية ، ولقد كان المسلمون يحارون وهم يسمعون مثل هذا الكلام في المساجد لأنهم لايفقهون مايقال ، بالطريقة التي سمعناها الآن ، ولعلي وحدي أو بعض المستمعين قد أدركوا مدى الصعوبة في متابعة مايقال بهذه الطريقة الفلسفية .

ومن سلبيات الحزب والتي عرضها الأخ بطريقة غير واضحة ، ولكن أريد أن أركز عليها : نقطة (ضياع الجهد) ، لأنه في الخمسينيات كانت الحركة الإسلامية تتحرك وكنا في صراع مع اليسار ، مع الماركسيين في الأردن ، وإذا بحزب التحرير يبدو ، وأذكر حادثة لأخ ضمه سجن عمان المركزي مع كل أنماط السياسيين بسبب اعتراض الأخوان والشيوعيين والبعثيين وجميع المنتمين للحركات الذين اعترضوا على موضوع سياسي وهو الدخول في حلف بغداد ، فسجن الجميع ، فجلس أخ في السجن يقنع شاباً ماركسياً بالإسلام ، وفي الفترة التي بدأ يشرح الله فيها صدر هذا الشاب أو بدأ يقترب من الفهم ، مر تحريري ، فقال هذه طريقة مغلوطة ، ليست طريقة رسول الله ﷺ ، فانصرف الماركسي وقال كلمة هي عنوان لهذا التشتت ، اتفقوا أولاً على الإسلام الذي تريدون ، ثم تعالوا ، وادعونا بعد ذلك ، ولذلك أمضينا سنوات في الأردن ونحن نناقش ألفاظاً ، مثل ادعائهم أن الإخوان يخطئون ، لأنهم يقولون : الإسلام دين ودولة ، والصواب دين ومنه الدولة ، وظلت الفترة طويلة ونحن نناقش حتى بدأ الحزب يكبر ، وكما قال أخي بتعبيره اللطيف الدقيق ، لقد سخنوا الموقف ثم وصلوا إلى درجة الغليان ، ثم انتهوا إلى درجة التبخر ، وفي ظني أن الحزب الآن ليس كما يقول الإخوة التحريريون بل أنه في مرحلة الانكماش .

ومسألة الجرأة على الفتوى ، وأترك لكم أن تقرؤوا الفتاوى التي وردت هنا بجواز النظر إلى صورة المرأة العارية على الورق ، وخطورة الموقف هنا أن جميع أفلام الجنس في أوروبا مباحة ، لأنها صور ولأنها ليست حقيقية ، يعني لايوجد جسد امرأة بل الموجود هو الصورة ، والنظر إلى الصورة يختلف عن النظر للحقيقة ، والنظر للصورة والخيال ليس محرماً ، ويضاف إلى ذلك إباحة القبلة من المرأة الأجنبية إذا كان المقبل لايقصد الفاحشة ، ولا أدري كيف يمكن التوفيق بين هذين الموقفين .

ومسألة التثقيف الفردي أو الحركي ، فهم يأخذون على الإخوان أنهم يدعون إلى تثقيف الأفراد واحداً واحداً ، وطريقة الإخوان في ظني وهي الطريقة المثلى هي طريقة رسول الله ﷺ كان يأتي الناس عند الكعبة ويخاطبهم ، إني رسول الله إليكم ، أيها الناس إن الرائد لايكذب أهله ، وهذه هي الطريقة الجماهيرية الأفقية ، ثم يأتي ببعضهم إلى دار الأرقم ، فيحدثهم ويربيهم بالطريقة الفردية ، ويخاطبهم جماعية عند الكعبة وفي عرض نفسه على القبائل والذهاب إلى الطائف . وهذه هي الطريقة التي يسلكها الدعاة اليوم في المؤتمرات والندوات والمحاضرات : طريقة جماعية وطريقة فردية في اللقاءات الخاصة . في البيوت أو قراءة الكتب ، إنهم كانوا يتهمون الإخوان بأنهم يلجؤون إلى الطريقة الفردية فقط ، وهم يدعون إلى تثقيف المجتمع ، والاكتفاء بإحدى الطريقتين ـــ في نظري ـــ خروج عن طريقة رسول الله ﷺ .

هذه صورة أحببت أن أعرضها بسرعة ، ولا أريد أن آتي إلى سلبيات كثيرة ، لأن فيها شيئاً من القسوة التي لا أحب أن أعرضها في هذا المجال ، ويكفي أن أذكر أن الإخوة التحريريين يصّرون على أن آراءهم هي الصواب وأن الأمة كلها لاتفهم ولا يستثنون لا « المودودي » ولا « سيد قطب » و « حسن البنا » ولا غيرهم من العلماء ، ولقد سمعنا ذلك بآذاننا من أشخاص حين قلنا لهم مارأيكم في الاحتكام للمودودي ؟ قالوا : إنه لايفهم من أمور الإسلام ـــ التي نريد أن نطرحها في المؤتمر ـــ شيئا ، وسألناهم أي عالم تريدون ؟ قالوا : كل علمائكم لم يدرسوا في حلقات حزب التحرير .

ولقد كنا نلاحظ ونحن في داخل السجن حين كان يتاح لبعضنا في فترات أن نجلس لنتحدث في الشمس ، ونخرج إلى بعض المواقع ، فإذا تحدث عالم من علماء الدعوة الإسلامية ، بغض النظر عن انتمائه ، كان التحريريون ينصرفون عنه ولا يجلسون في حلقته أو درسه . فإن تحدث شاب حرفي ، مهني ، عامل ، بسيط ، ولكنه درس في حلقة من حلقات الحزب ، ولم ينل أي حظٍ من الثقافة إلا أنه قرأ كتاباً أو اثنين من كتبهم ، جلسوا إليه ، واستمعوا بكل إصغاء ، مما أكد لنا الصنمية الفكرية التي نرفضها .

ولعل حوارنا اليوم حول فكر الشهيد سيد قطب قد أعطى الصورة المشرقة للدعوة الإسلامية ، إذ يقف أبناء الدعوة الإسلامية ، وتلاميذ سيد قطب ، يشيرون إلى الصواب ، وإلى ما يمكن أن يكون خطأ ، مما يؤكد فتح القلوب والعقول ، فهو حوار سليم يجب أن يأخذ بالصواب حيثما كان مصدره ، وأن يترك الخطأ حيثما كان مصدره .

*